

بارعة في الجراحة والطب والهندسة والتاريخ والرحلات والصناعات والزراعة، وبراعة في المهن كالبناء والسفينة والتجارة وعلاج الأسنان والنجارة والحداة وصناعة الحلويات والمعجنات. أما المرأة، فقد قدمت للمجتمع فناً وخدمات لا تحصى. إن أدواراً وبراعات كهذه قد تطورت تصاعدياً بفعل حالات السلم والأمان لمسيحيين شاركوا المسلمين وأمنوا على أرواحهم وأموالهم وأملاكهم وأعراضهم ونواميسهم وعباداتهم وكنائسهم واحترام المجتمع عاداتهم وتقاليدهم وطقوسهم وصلواتهم. بل أجد شراكة وتعايشاً في بعض الطقوس من المحليات المركبة.

فلسفة الشراكة والتعايش العراقية

يخبرنا كلٌّ من التاريخين المحلي والكنسي، أن هناك تعايشاً اجتماعياً في العراق يندر وجوده بين المسلمين والمسيحيين (وحتى اليهود) العراقيين، إذ

وخصباً. من دون أن يؤذيها أي بشر من العراقيين. وأعتقد أن ما شهدته الكنائس المسيحية أخيراً من تفجير والهجوم عليها يشكل حالة غريبة وشاذة لم أجد لها على امتداد تاريخ طويل أبداً. وسيقول المستقبل كلمته في هذه الحالة الشاذة التي كان سبيلها التعصب الديني الذي لم يصل عبر تاريخنا الطويل إلى ما وصل إليه اليوم بفعل عوامل اجتماعية وسياسية وقومية معقدة شاركت في صنعها الأنظمة السياسية الفاشية.

إنني لم أقف على صراعات دينية في العراق أبداً، والعراقيون لم يعانون صراعات دينية مطلقاً. ربما اشتعلت صراعات سياسية ومذهبية قاسية وهم يرزحون تحت حكم العباسيين والمغول أو الفرس والتتار والأنظمة التركمانية والحكم العثماني وحكم الإنكليز والعهدين الملكي والجمهوري. ربما أجد نزاعات قبلية وعشائرية وعائلية مريرة بين العرب أنفسهم وبين الأكراد أنفسهم أو داخل مدينة معينة

كنا ننتظر أيام الأحاد لنسمع نواقيس البيع

والكنائس مساءً يعلو رنينها في أماكن عدة من الموصل

وبغداد والبصرة وكل القرى المسيحية الجميلة

من المدن. ولكن لم أقف أبداً على أي صراع اجتماعي بين الأطراف العراقية. حتى إن قارنت بين مجتمع العراق من طرف ومجتمعات مجاورة، أجد أن العراقيين وحدهم كانوا ينعمون بوحدة اجتماعية وكانوا من أبعد الناس عن الصراعات الدينية. بل لا يشكّل العامل الديني أو التعصب الطائفي لديهم أي نصيب يذكر لتأجيج أي فتنة أو إشعال أي صراع. عندما أستعيد ما بقي راسخاً في ذاكرتي الحادة، أقول: كنا ننتظر أيام الأحاد لنسمع نواقيس البيع والكنائس مساءً يعلو رنينها في أماكن عدة من الموصل وبغداد والبصرة وكل القرى المسيحية الجميلة. علماً بأن للمسلمين كل الحق في دخول البيع والكنائس ومشاركة المسيحيين فعاليتهم، ونحن نجلس في المقاعد الخلفية عندما يؤدون

نجد أن المسيحيين لهم اندماجات شبه كاملة بالمجتمع، وقد وقعت وأنا أتحرى تاريخ الشرق الأوسط الاجتماعي على مستندات طابو لملايكات عقارية في الموصل، وخصوصاً في السكن المشترك، بين مسيحيين ومسلمين عراقيين مؤرخة في القرن السادس عشر. وهذا يحدث أيضاً في سندات عقارية وعقود تجارية لداكين مشتركة أو شركات مساهمة أو قوافل بضائع. إن الطرفين ارتبطا بمحبة غامرة واعتزاز كبير بالآخر ويعبر عنها رجال الدين لكل من المسلمين والمسيحيين. ولنتأمل عشرات الأديرة عبر ألفي سنة تقوم وحدها في العراق بعيداً عن المدن وأسوارها، صامدة في وجه الهجمات والغزوات الخارجية. لقد بقيت الأديرة القديمة اليوم قرب مدينة الموصل في أروع المناطق جمالاً